**الوثائق. مفهومها، أنواعها وتقسيماتها**

**وأهمّيتها في الدراسات التاريخية**

تعد الوثائق المحفوظة، بالإضافة إلى المخطوطات والشهادات المكتوبة والمذكّرات الشخصية لمن عايشوا الحدث، أهمّ مصادر المعرفة التاريخية والتراث الحضاري ؛ وهذا ما يجعلها المرجع الأساس للبحث العلمي، والأصول الّتي يعتمد عليها تدوين التاريخ.

**المفهوم**

الأرشيف، الّذي يعتبر مرادفًا للوثائق المحفوظة مشتقّ من اللفظة الإغريقية Archeion، ومعناها "مبنى عامّ تحفظ فيه الوثائق والسجلاّت". أمّا فيما يخصّ الأرشيف، فإنّه يعرّف بكونه مجموعة الوثائق القديمة المحفوظة من أجل إثبات حقوق عامّة أو خاصّة، وكذا من أجل كتابة التاريخ ؛ كما يحمل - ولا سيّما في عدد من اللغات الأوروبية - مدلول الهيئة - سواء أكانت عمومية أو خاصة، جمعوية أو شخصية - الّتي تتولّى مهمة حفظ الوثائق والسجلاّت والمستندات وغيرها بصفة منظّمة.

الوثيقة في اللغة العربية هي كلمة مشتقّة من الفعل وثق، ووثّق الأمر أي أحكمه ؛ فالوثائق هي كلّ ما يعتمد عليه ويرجع إليه لإحكام أمر وإعطائه صفة الإثبات أو كلّ ما يؤتمن عليه كوديعة فكرية أو تاريخية تساعد في البحث العلمي أو تكشف عن واقع معيّن ولها قيمة إثباتية أو علمية.

و من المنظور الارشيفي، بالإمكان أن نجمل مفهوم الوثيقة التاريخية كما يلي : من حيث الشكل، يمكن عدّ كلّ وعاء يحمل معلومات متفاوتة الأهمّية والفائدة، سواء كان ختمًا أو ورقة أو مطبوعًا أو شريطًا مسموعًا، وثيقة تاريخية ؛ ومن حيث المضمون، يجب أن تكون لها قيمة سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو إدارية أو مالية أو قانونية أو فنّية أو أدبية أو اجتماعية، كما يجب أن تتوافر فيها جملة من الشروط مثل كونها مصدرًا لإثبات الماضي، و أن تكون قد نشأت أثناء تأدية عمل منتظم وبشكل طبيعي، وأن ترتبط بعلاقة مع مجموعتها، لكن من جهة أخرى، فإنّه لا يشترط صدورها من جهة رسمية، على غرار الأرشيفات العائلية والشخصية، و مبدئيًا لا يشترط عليها - مثلها مثل باقي المصادر التاريخية - الموضوعية، الّتي يمكن أن نعبّر عنها بالحياد وعدم التحيّز، على غرار الأرشيف الكنسي (و نخصّ بالمثال في هذا الصدد كتابات آباء الفدية ومحاضر محاكم التفتيش).

**الأنواع والتقسيمات**

يمكن تقسيم الوثائق على أسس متعدّدة استنادًا إلى السمتين الرئيسيتين اللّتين تتميّز بهما أي وثيقة، وهما : السمة المادية الّتي تشمل الشكل العامّ والأمور الظاهرية الأخرى، و السمة المعنوية الّتي تتضمّن المحتوى الفكري للوثيقة ؛ وعليه، بالوسع أن نعتمد تقسيم الوثائق وفق :

➀ **نوع المادة المكوّنة للوثيقة** : الّتي قد تكون من الطين المشوي أو الكاغد أو البردي أو المعدن، أو من مواد أخرى، فيقال عندئذٍ وثيقة طينية أو بردية أو معدنية.

➁ **الموضوعات العامّة** : الّتي تقدّمها مجمل المعلومات المتضمّنة في الوثيقة، حيث تصنّف من حيث الصفة الغالبة لمضمونها إلى وثائق ذات موضوعات قانونية (تكون مستندًا أو دليلاً أمام القضاء) أو إدارية (تنظّم النشاط الإداري وتعبّر عنه) أو مادّية/مالية (تنظّم الشؤون المالية وتعبّر عنها) أو دبلوماسية (تتضمّن المعاهدات والاتفاقيات والتقارير والمراسلات الخارجية) أو تراثية (تتضمّن أدبيات وشواهد فنّية فلكلورية) أو عسكرية (تعبّر عن النشاط النوعي للجيش وقطاعاته) أو علمية (تشمل كلّ ما له علاقة بالعلوم والمعارف)، وغير ذلك من التصانيف.

➂ **طريقة التدوين** : وهي أساليب تدوين المعلومات في الوثيقة، حيث قد تكون كتابات - مخطوطة أو مطبوعة - أو رسوم تشكيلية أو نقوش أو غير ذلك.

➃ **الشكل العامّ** : الّتي قد تكون ألواح طينية أو برديات أو رقوق أو قراطيس (كواغد) أو أختام أسطوانية أو أواني أو غير ذلك.

➄ **الزمان** : حيث يمكن تجميعها وفق الحقب الزمنية، كأن يجري تصنيفها إلى وثائق القرون الوسطى، وثائق فترة الآغوات، إلخ.

➅ **المكان** : حيث يتمّ تقسيم الوثائق تبعًا لأماكن منشئها أو وجودها أو أيّة نسبة جغرافية يمكن أن تعرّف الوثيقة.

➆ **الارتباط** : ونقصد بذلك ارتباطها بهيئات معيّنة مثل وثائق محاكم الشرعية، رصيد بيت المال، وثائق الفاتيكان، إلخ.

➇ **الديوانية** : تصنّف الوثائق كذلك من وجهة نظر المؤرخين والأرشيفيين إلى وثائق ديوانية وأخرى غير ديوانية : فالأولى تكون صادرة عن ديوان أو مصلحة رسمية تتبع قواعد وأساليب ثابتة في صياغتها وطرق إخراجها وشكلها ؛ والثانية صادرة عن هيئة أو مؤسسة ليست لها قواعد أو أساليب أو أشكال واضحة وموحّدة.

➈ **غرض المحتوى** : ويعنى به الغرض الّذي كان يرمي إليه طالب أو صاحب الوثيقة من كتابته إيّاها ؛ وتكون بأغراض متنوّعة مثل التحبيس أو الطلاق أو إثبات النسب أو طلب النجدة أو التجسّس أو التظلّم أو غير ذلك.

**أهمية الوثائق في الدراسات التاريخية**

لقد أورد لانغلوا وسنيوبوس أنّ "**التاريخ يصنع من الوثائق، فالوثائق هي الآثار الّتي خلّفتها أفكار السلف وأفعالهم**" مضيفين أنّه "**حيث لا وثائق، فلا تاريخ**" ؛ وأفاد فوستل دُه كولنج ذات الشيء بقوله أنّ "**لا تاريخ بدون نصوص**"، إذ أنّه "**علم لا يتخيّل، بل يرى ؛ وهو نظير كلّ علم ينظر إلى الأحداث ويحلّلها ويقارن بينها ويحقّق الروابط القائمة بينها. والمؤرّخ يبحث عن الحدث ويدركه بدراسة النصوص بإمعان ودقة، والطريقة هي واحدة في كلّ علم مؤسّس على الملاحظة الدقيقة**".

نخلص من هذه التعريفات والتحليلات إلى أنّ كتابة التاريخ مرهونة إلى حدّ كبير بمدى توافر وثائق بشأنه، وبمدى الموثوقية الّتي تحقّقها، كما أنّها تعمّم مفهوم الوثيقة على كلّ الآثار الّتي يخلّفها الإنسان في ماضيه. على أنّ هناك مقاربة نسبية لهذه المعرفة الّتي تتحقّق من خلال دراسة الوثائق ؛ وذلك بتقديمها على أنّها لا توصل إلى اليقين، بل تقوّي الافتراضات. وفي هذا الصدد، يؤكّد مارو بأنّه "**ينبغي على المؤرّخ أن يستخلص الحقيقة التاريخية من الوثيقة، ولكن هذه الأخيرة لا تثبت بشكلٍ قطعي حدوث الواقعة** [كما تمّ سردها]**، إذ أنّ النقد لا يمكن أن يحدّد إلاّ المصداقية الّتي تستحقّها شهادة الوثيقة... ولكن إذا تمكننا من تجميع شواهد عديدة... فإنّ احتمال حدوث الواقعة** [كذلك] **يصبح كبيرًا، وينتهي بالوصول إلى المعرفة اليقينية**".

فضلاً عن ذلك، تبقى الوثيقة في ذات الآن موضوع الماضي وأداة المؤرّخ والدليل على علمية التاريخ : فهي موضوع الماضي من حيث كونها تنتمي للماضي ومن مخلفاته وتشهد عليه ؛ وهي أداة تأريخ من حيث كونها المادة الأولية الّتي يبني المؤرّخ التاريخ بواسطتها ؛ وهي دليل علمية التاريخ من حيث إنّ المعرفة التاريخية لا تكتسب مشروعيتها، إلاّ عبر الصرامة المنهجية الّتي يتمّ إعمالها في دراسة الوثائق وتحليلها.

ولا تتوقّف أهمّية الوثائق عند النقاط المذكورة، إذ بالوسع إضافة الآتي :

➊ تعتبر الوثائق من أصدق المصادر التاريخية نسبيًا مقارنةً بغيرها من المصادر.

➋ الوثائق لها دور أساسي في إثبات الحقوق، وبواسطتها أيضًا يمكن استعادتها.

➌ الوثائق تشكّل رصيدًا تراثيًا معتبرًا كونها شواهد على السمات الحضارية لحياة الشعوب قديمًا وحتّى زمنٍ قريب.

➍ تتضمّن الوثائق في ثنايا سطورها أغلب الأحيان الكثير من الحقائق، الّتي تسدّ الثغرات الناقصة وتسهم في تصحيح الأخطاء والمغالطات.

➎ تضطلع الوثائق بدور مميّز في ربط الماضي بالحاضر، وتساهم بذلك في اتّخاذ القرارات السليمة والاستشراف.

➏ باعتبارها ذخائر، تساهم الوثائق في حفظ ذاكرة الأمّة وتاريخها.

➐ الوثائق تنفرد عادةً بإفادات تاريخية متنوّعة، قد تكون غير معروفة البتّة في المصادر الأخرى، فتكشف عن معلومات جديدة أو أحداث مجهولة يجلّيها شاهد عيان أو اقتباسات من وثائق أصلية صارت ضائعة أحيانًا.